(١٨)

التعديد والتوحيد أو التوحيد والتعديد
الشفع والوتر أو الوتر والشفع
هو العلم والعقيدة أو العقيدة والعلم

حديث الجمعة

٢٠ جمادى الأولى ١٣٨٢ هـ - ١٩ أكتوبر ١٩٦٢ م

إلى مصدر كل شيء..

إلى كل شـــيء..

إلى المعروف الذي لا يُعلم، إلى المعلوم الذي لا يُعرف..

إلى المسمى الذي لا اسم له ولا يتسمى..

إلى الموصوف الذي لا يتصف..

إلى واجب الوجود المتواجد في وجوده..

إلى الموجود المتفاني بفناء وجوده في موجوده..

إلى المنزه.. إلى المنزه عن التنزيه..

إلى القيام المدرك.. إلى الحياة.. إلى مصدر الحياة.. إلى الحي القيوم..

إليه نتجه، معبدين أنفسنا له، سرابيل ليله ونهاره، لظهوره بتجليه، ولتواجده بتدانيه، رحمة منه، في الافتقار إليه، نوحده لا نشرك به، ونستعينه لا ننكر عليه، ونعتز بفضله لا نستكبر به، لا إله إلا هو، ولا حق سواه..

جاء الحق منه، في مجيء رسالته برسله، لا بدء لها، ولا انقطاع لهم، ولا بدء لهم، ولا انتهاء لها.

عباده، عباد رحمته، وجوه طلعته، رسله منه وإليه، إلى الناس قائما على كل نفس من الناس أمورا له، منه وإليه لا شريك له، نشهد أنه الواحد لا تعدد له ولا كفأ معه، وأنه الأحد لا تعدد فيه، ولا سلطان إلا له، وأن الإنسان بمعناه معاني فيه ومعاني له، طلعته ربا مرسِلا، وعبده رسولا، وسيدا منه مرسلا إليه. أينما نولي فوجهه، وفي أي شأن نقوم فأمره، وفي أي لون نعمل فحكمته، من الأرض ينشئنا وإليها يعيدنا، ها نحن عليها، بنا تتزين وتغنى، ومنا تخلع زينتها وعنا تخلع غناها، حول نفسها تدور، وحول شمسها تطوف، وحولها وليدها منها عليها يعكف.

حول الأكبر تدور، وحولها الأصغر يدور، وما دارت حول غير لها، وما كان غيرا لها ما دار حولها.

إذا اجتمع من يدور حولها، أو ما يدور حولها، على من دارت هي حوله، أو ما دارت هي حوله، فقد أدت رسالتها، وتخلت عن سيادتها على صغيرها أو وليدها، وردته إلى السيادة عليها، من كانت هي منه وليدة، فاجتمع الفرع على أصل أصله ثالوث واحد، وما اجتمع على أصل أصله إلا بالتحرر من أصله بمولد منه ليكونه، خلق فسوى، اجتمع الشمس والقمر.

إن الذي يُشهد من أمر الفلك، هو ما يشهد من أمر الناس، والناس على أرضهم تنشق عنهم أبناءً لها، وأُما لهم، يَحملون صفاتها في أنفسهم فيدورون حول أنفسهم، كما تدور أمهم الأرض حول نفسها، فيظاهرون شمس معرفتهم أو يواجهونها تبعا لها وهم في دوام بدوام حركتهم، حول أنفسهم في حركتها يواجهون شمس معانيهم بأبعاضهم، ويظاهرونها بأبعاضهم، فيجمعون لذواتهم معاني الليل والنهار بما يعلمون من أمرهم وما يجهلون من أمرهم، وهم في علمهم لا يستكملونه، وهم في جهلهم لا يدومونه، يأتيهم الجهل بعد العلم فيعرفونه، ويأتيهم العلم بعد الجهل فيستقبلونه، ويأتيهم العلم بعد العلم فيعرجونهم أو يأتيهم الجهل بعد الجهل فيضاعفونه ويعمهونهم. فبين العلم والجهل يتواجدون، وبين العلم والجهل ينعمون ويشقون. هؤلاء هم أبناء الأرض، القمر مثالهم لبنوتهم لها وانشقاقهم عنها مواقيت للناس في أطوارهم بزمانهم، الشمس مرادهم ومولاهم، أو مجهولهم ومبتلاهم على ما الأرض معها في أمر نفسها. إذا عرفنا هذا ظاهرا لنا في ظاهر أمرنا، عرفنانا بين الشمس والقمر، أراضين وسمواتها، وأوادم ودوراتها، فكنا أمة وسطا، أبناءً لأرض، كانت بين الشمس والقمر كوكبا وسطا، تعرف الأكبر وتعرف الأصغر، وتعرف نفسها، فإذا كانا معناها وجدنانا نرعى الأصغر آباءً وأمهات، ونوالي الأكبر أولادا وبنات، ونتكاثر بأنفسنا متزاوجين في أنفسنا في بنات وبنين امتدادا لنا.

بهذا كان إنسان الأرض أصلح أنواع الإنسان لاستقبال كمال معناه من إنسانية الأزل، وكان أرضا صالحة لبدء إنسانية الأبد، فما صلح في بيئات الإنسان لاستقبال المثل الأعلى للإنسان في أزله في أحسن تقويم، إلا إنسان الأرض مستخلفا مشهودا بمعنى الأزلي لمعناه لسائر العوالم. وما صلح من

الأراضين لنشأة الإنسان نشأة يصل بها إلى أحسن تقويم إلا إنسان الأرض. فطوبى لأهل الأرض من صلح منهم لمعنى الإنسان، وليدا فوالدا، فعين مولوده قائما، فقادما فقديما، وجديدا فمتجددا، فجدا فكوثرا، القدم والجدة له والجدة والقدم له، والأزل والنشأة له والنشأة والأبد له. كل هذا لإنسان الأرض ما حرص إنسان الأرض على معنى الإنسان له فطلب أباه وربه، وقام على مخاصمة نفسه فجددها وعددها، وحرص على أن يترك لولده ما ينمو به إلى كماله، مثالا للكمال له، ذرية طيبة بعضها من بعض، حتى يعمر أرضا يحييها ويملكها هي أرض قلبه، وسماوات ينشئها ويتسعها هي وحدانية ذاته يوم يحييها جزءا جزءا فردوس نفسه، يتخلق به المكان يوم تصبح ذاته محلا لوجود الإنسان الروح الدائم ذاتا له ونواة لوجود وليد. بها يتواجد بيت القبلة وقلب الوجود فيعرف الاتجاه للأعلى منه وللأسفل عنه، والاتجاه للأمام والخلف في مواجهته ومظاهرته، ولليمين واليسار بمتابعته ومعاندته، في ثالوث من الأطوال يتلاقى عنده حجرا للزوايا لتقاطع المتباينات من الطرق، وتلاقى المتناقضات من الاتجاهات، وهذا ما عناه عيسى بقوله كل منكم يحمل صليبه.

به يخلق الآن والعصر كلما ظهر بالحياة في مجالات العدم. فيتحدد القبل بما قبل بدئه بمولد، ويتحدد البعد ما بعد انتهائه بقيام في مظهر غيبه بموت، ويتحدد الحاضر بعقيدة حاضره فيمن فيه يحضر، ويتحدد الغيب بعقيدة تواجده في بعد عن الحاضر. به يتلوَّن نوعه من ظاهر الجنس ومن باطن الجنس بوصف الكفر أو الإيمان لظاهره في القرب منه والبعد عنه، وبوصف النور والنار أو الظلام والتراب لباطنه في الارتباط به والتطور بمعارجه وأطواره بسرابيله من الطبائع في الطبيعة.

إن الإنسان في مرجعه إلى الحق، في مرجعه إلى الحقيقة، في مرجعه إلى الله، إنما يرجع إلى أصوله، من صلح منهم يوم يصلح مرضيا مكافأ مسرورا، منقلبا إلى معانيهم على تمام لها في الإنسان، وإلا فيبقى مجفوا، مجازا، محسورا في طريق الفناء والحرمان. كلما نضج جلد له بدل جلدا غيره.

فالإنسان، إما أن تتهيأ له أسباب المضي في التكوين والتجدد والوجود ليكمل بمعناه باسم الإنسان، أو اسم ابن الإنسان، أو الروح القدس للإنسان، إذ ينقلب إلى أهله مسرورا، برجوع الولد إلى والده، والموجود إلى موجده، {فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون}[1]، {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم}[2]، إن الإنسان إلى أصله، وإن الإنسان في نفسه لنفسه بنفسه يعمل ويستقيم، ليتواجد ويصل، يتواجد بلا إله إلا الله، ويصل إلى لا إله إلا الله، فيعلم أنه من لا إله إلا الله نشأ. إن لا إله إلا الله لنشأته، وجود وقيام، وإن لا إله إلا الله لنفسه، وجود وقيام، وإن لا إله إلا الله لقادمه، وجود وقيام، وما لا إله إلا الله في قيامها منشأ، ولا لا إله إلا الله في قيامها منشِئا، ولا لا إله إلا الله في قيامها هدفا وغاية إلا لا إله إلا الله.

وهذا ما أراده أخونا، ومولانا، وسيدنا، وراعينا، ابن الإنسان، وابن آدم، وابن الأرض، وابن السماء، وابن الشمس، وابن الطبيعة ووليدها، وسيد الطبيعة وجديدها، من عرفناه عيسى بن مريم، ومن عرفناه كلمة لله وروحا منه، يوم قال الآب والابن والروح القدس إنسان واحد، أي أن آدم وحواء وأولادهم بيت واحد، أي أن الآب بقديم الأب، والأب لجديد الآب، والابن بمعنى الذات، والروح القدس بمعنى جماع الصفات حق واحد، وإله واحد، ووجود واحد.

يقول المسلمون ادعاءً إن الإسلام لا يعرف التثليث، ولا يعرف التثنية، ولكنه يعرف التوحيد. إن الإسلام عرف التعديد ما أنكره في القول بالخلق مستقلا عن الخالق، كما عرف التوحيد ما فارقه بظهور الخالق بالخلق، فعرف التثنية ما جحدها، وعرف التثليث وما فوقه فما أنكر المعارج في المعروج إليه وفي العارج به، وعرف التوحيد إذ قام به، وبدأ به، وجعل التوحيد شعاره وأساسه وبابه، وقيامه، وكتابه، وعلمه، ولكن جعل التثنية بعد التوحيد طريقا فيه {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله}[٣]، وجعل التثليث بعد التثنية علما فيه (كل ما جال ببالك فهو على خلاف ذلك)[٤]. {ليس كمثله شيء}[٥]، فميز المجهول عن المعلوم، والغيب عن الشهادة، وجعل الشهادة في ثنية من الرسول وربه الغيب باطنهما، هما معه ثالوث واحد، وقيام واحد، وأمر واحد، وحق واحد، فجعل التعديد بعد التثليث تعريفا عنه بوحدة مفرداته لا حصر لها، في التوحيد والوحدانية وجوها له. فإذا جاء أدعياء الدين الذين ما أسلموا لأمر الله فيهم وبينهم، ولا منهم الناس سلموا، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويزعمون القول بتوحيد ابتدعوه يشوشون به على العقائد بأوهامهم، والتوحيد في الإسلام قيام بدء بالله ورجاء نهاية إليه، نبدأه على سبيل البشرى بإيمان قيامه في النفس، وننتهي إليه على سبيل الغاية بقيام اليقين بمعناه لها، فإذا تحدثنا إليه معنا مفتقرين، وعرفنا عنه لنا مجاهدين، وطلبناه فينا بوحدانيته معنا سارين، فإننا نبدأ في التعديد مثنّين بعين وجود عبد وقيام رب في الذات وفي اليقين، فإذا عرفنانا للرب عبدا نتابع، ووجها للرب لوجوهه في الناس نشاهد، وعرفنا ما بينهما على ما علمنا من وحدانية الله بها بدأنا، فلم نفرق بين العبد وربه الأمر الذي عرفنا في أنفسنا، عرفنا الرب أينما نولي فوجهه، ثم عرفنا معنى العبد فينا وبيننا، وفي أنفسنا، وفي كل شيء، كيف هو مع ربه، من هو كل شيء فعلمنا وحدانية الله بعد اعتقاد بها فقبلنا قول الحق: واعلموا أن فيكم رسول الله، اعتقادا، فطلبناها لنا به علما ورشادا وقياما، إذا قمنا في هذه التثنية بعين عبد ورب لأنفسنا، وعبد ورب لمن نتابع وبه نقتدي ونهتدي، وأثره نتعقب. إذا قمنا ذلك قام فينا هذا التثليث، بكائن متابع لمعنانا متابعين، وعبد حقي متبوع لمعنى الرسول خلفه سارين، هو حق لرب معه متحد على ما نحن فيه متحدين. فإذا عرفنا هذا التثليث من الغيب إلينا والرسول بيننا وقمنا بين يدي رحمته من الرسول وربه، عرفنانا بربه في دوام ظهور صفاته الأزلية على ما شهدنانا كان لنا، وعلى ما نشهد بمزيد وجديد دائما لنا يكون، فعرفناه ذا

المعارج بعروجنا، فعرفنا التعديد، لا عد ولا حصر له، وأدركنا ماذا أراد رب محمد، بما قال لمحمد: آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، إذ دركه الوحدانية بدءا في قرب بقاب قوسين أو أدنى، ثم دركه الإثنينية في شهود نزلة أخرى، ما زاغ البصر وما طغى. دركه الوحدانية في: ما كذب الفؤاد ما رأى، ثم دركه المعارج بدءا من نفسه في معراج هيأه لتقبل نزلة وأخرى، ودركه التعديد بالعبودية والتنزيه باللانهائية في قوله له: هل تعلم له سميا.. قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون. فكيف ننكر على الإسلام علمه بالتثنية والتثليث والتعديد وهي تفريع عن أساسه من الوحدانية، وهي علوم في الحقيقة عنها يدرك معنى الإكبار لله والتقدير لمظاهره من كائنات بها يذكر؟ فالتثنية منتهية إلى التوحيد وبادئة منه، والتثليث منتهي إلى التوحيد وبادئ منه، والتعديد منتهي إلى التوحيد في إدراك مفردات وصفات وأسماء الواحد وبادئ منه في عظمة تقديره، هو الرحمن فاسأل به خبيرا.

إن السائل قائم بالله، والمسئول قائم بالله، والمسئول عنه قائم بالله، فالسائل والمسئول إثنينية، والمسئول عنه بطلب حي عند السائل وبعلم قائم عند المسئول، ثليث يجعل منهم قياما في المسئول عنه، هم ثالوث واحد، وقيام واحد، وحق واحد، والله خلقكم وما تعملون، عملكم هو مبناكم، من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، إن ابني من أهلي إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح.

إن العمل وصانعه، وصانع الصانع ثالوث واحد وحق واحد، أنت ومن صنعك وما صنعت أمر واحد، وشأن واحد، وقيام واحد، وكتاب واحد، وحق واحد.

أنت وأبناؤك قيام، وآباؤك إلى آدم قيام، وآوادم آدم في قيام قيام ثالوث واحد. إن آدم في قيامه ومن تناسل منه إليك في قيامهم، وأنت وما تتناسل منك في قيامك ثالوث واحد، وقيام واحد، فيك صفات آدم وما زلت فيه وما زال يقوم بك، فأنت وآدم وما بينكما ثالوث واحد، وقيام واحد، وآدم واحد، وحق واحد، وإله واحد، آدم ومن وجد على مثاله، ومن أوجدهما منه، ثالوث واحد، وقيام واحد، وحق واحد، ووجود واحد.

إذا لم نعرف التعديد بالتثنية والتثليث في وحدانية الله، فكيف ندرك وحدانية الله؟ وكيف نقبل وحدانية الله؟ وكيف نفعل لأنفسنا وحدانية الله فنوحده؟ كيف نقوم بوحدانية الله اعتقادا؟ وكيف نقوم بوحدانية الله يقينا وحسا وقياما؟

إن آدم بلا بدء، وآدم بمعلوم بدء، وآدم بمنتظر ومرجو بدء، إنما هم ثالوث واحد، وآدم واحد، وحق واحد، خير الأمور فيه أوسطها، فآدم الذي تعارف إلى الرفيق الأعلى من آدم والذي سهر وانتظر الرفيق الآتي بمعني آدم منه كآدم له حتى يلتحق بالرفيق الأعلى لهما ويستخلف في القيام الأدنى على ما

استخلف، إنما هو أعرف آدم بمعنى آدم وقد أظهره اللانهائي على الدين كله، علم آدم الأسماء كلها ولن يحرم آدما ما من معارف هذا الآدم في قديم الأوادم عليه أو في قابل الأوادم من بعده إمام النبيين، ونهاية أطوارهم، وختام مطافهم، وسيد الشاهدين، وشهيدا عليهم. وإن لم يكن ذلك كذلك فماذا يرجو أبناء آدم من رب آدم مربوبا، ومن أبوتهم بآدم أبا وربا؟ إذا لم يكن ذلك كذلك فكيف نسمى بشرا؟ وكيف ننتظر بشرى؟ وكيف نشرئب لمرجو كمال من العزيز على المثال، والذي جعل في آدم لأبنائه حالا ومثالا؟

إن كلمة الله بآدم نؤمنها لأنفسنا فردا فردا، ونؤمنها لجماعتنا جمعا جمعا، ونعتقدها لأمم أرضنا أمة أمة، وندركها لبشرية أرضنا بشرية بشرية. على هذا يقوم رجاؤنا، وفيه تقوم آمالنا، وعلى القيام فيه وكسبه لأنفسنا يقوم ديننا، وطريقنا، ومعارفنا، وعلمنا، ومجاهداتنا.

إذا لم يكن ذلك فلا خير في دين، ولا خير في مودة، ولا خير في حب، ولا خير في تجمع، ولا خير في مجاهدة، ولا خير في مسير، ولا أمل في سكينة.

إن دورة آدم هي كتابنا.. هي دستورنا.. هي علمنا.. هي معرفتنا.. هي حقيتنا.. هي حقنا.. هي ديننا وطريقنا.. هي عملنا ووسيلتنا.. وهي أملنا وغايتنا.. أبناءً كنا أو آباءً صرنا.. أو روح القدس لهما حصلنا.

إذا نظرنا إلى آدم بمعلومه لنا، من العلم عنه من أبنائه رسلا إلينا وإخوانا لنا، عرفنا أن آدم على مثال من سبقه بمعناه لا جديد في الله علما عليه دار حول نفسه ليتواجد على تكامل، وحول سبقه إلى كمال دورات بين الليل والنهار، جمعتها في الزمان فترات، عنونها منه له فيه أبناء هم الكلمات، وأرواح هم الآيات هيكلا وبيتا للإنسان، كان أأ أا نوح، وإبراهيم، وعمران، وموسى له آيات مثلت فصولا أربعا في الزمان، وجهات أربعا في المكان، وأركانا أربعا لذات البنيان في دورته حوله وحول شمس معناه، جمعها محمد لبيت قبلته، وطواف وصلته، وعاكفي صلاته من معانيه ولداته إماما وخاتما للنبيين، وأصلا وشهيدا على الشهداء والشاهدين، عبدا لله وأول العابدين، وربا للناس وقدوة للمؤمنين، وإماما وربا للعالمين في بيوتهم مرفوعة أو موضوعة لفردوس أنفسهم في لانهائي الوجود للصالحين، كمالا لآدم أصله، وبعثا له منه بكمال معناه، وقياما له بين يدي رحمته، بمعناهما روحا أمينا لهما موصولا بهما، رسول الله اللطيف الخبير عالم الغيب والشهادة رفيع الدرجات جماع الكلمات والآيات، قدسي الذات والصفات. فكان آدم في جديده بأيامه ماثلا بوجه مشرق على رأس كل قرن، وبلياليه متواجدا في كل وقت وحين، في دورة حول نفسه وحول شمسه لا تفتر ولا تهدأ ولا تلين، فكانت نسبية اليوم بالنهار والليل للفصل، والفصل للعام، والعام للقرن في العصر والدهر، أمر نسبي يدركه الإنسان في

نفسه ما دارت نفسه بالحياة، فعرف الليل والنهار في نفسه، وعرف الأيام والشهور في خطوه، وعرف الأعوام والقرون في يقظته ونومه، وأدرك أنه يقطع الزمان ويبقاه، لا يقطعه الزمان ولا يفناه، ولو قطعه الزمان لرد إلى حجاب العدم، منه انبثق فعنون الأزل، وبنفسه تواجد فعنون الأبد، وإنه وقد قطع الزمان فإنه يواصل السير في طريق الحياة ارتفاعا فوق الزمان وفوق المكان.

إن البعث والقيامة والساعة والنشأة الأولى والآخرة، والحياة الدنيا والثانية، إن العاجلة والآجلة، إن الأزلية والأبدية والدورة السرمدية الدائمة، إنما هي قضايا الإنسان وأحواله، وأطواره، ومنازله في وعيه عن نفسه، وفي إدراكه عن معناه في وجوده وحسه موجودا في الموجود المطلق، واجب الوجود عنده، والمعروف له في وجوده ومعارفه ضرورة وعلة. أدرك وجوده من الموجود المعلوم إليه من ربه وأصله من الوجود المطلق عبدا له وسيدا به، معبودا منه ومعبودا به. وهو يوم يعلم عن ربه لا يعلم عنه إلا يوم يُصبح أصلا معلوما لفرعه عالما به فيقرأه علما به وعلما عنه في مقروء نفسه، فيشهد في فرعه ما يشهده ربه فيه فرعا له، فيعلم عن ربه في معرفته عن نفسه أصلا لفرعه، ثم يشهد في فرعه قيام وبعث أصله أصلا له وفرعا منه فيعرف قادمه وقادم الحق له وقديم الحق عليه وقائم الحق به.

على هذا قام الإسلام، وعليه قامت آيات القرآن وحكمته، وفي هذا دار حديث الرسول وفعله وسنته، فمن أراد الدين فالدين في العلم، ومن أراد العلم فالعلم في الدين، لا فرق بينهما، ولا انفصام لهما، ولا عزل لأحدهما عن الآخر، فلا دين بلا علم، ولا علم بلا دين.

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، هي الدين وهي العلم وهي الحياة وهي الوجود، ما ظهرت الحياة في شيء مثل ظهورها في الإنسان، أشهد أن محمدا عبده ورسوله وإنسانه للعالمين.

اللهم اهدنا بهديه، وأنر بصائرنا ببصيرته، وأحيِ قيامنا بقيامه، وأشهدنا به أنه لا إله إلا أنت ولا معبود سواك.

اللهم يا من عرفت نفسك بنفسك، وعلمتنا وعرفتنا وأبلغتنا لنعرف نفسك في أنفسنا منك بك فيك، اللهم تواجدنا منك لنتواجد بك وجوها لك إليك المصير، اللهم برحمتك فأدخلنا في حصن لا إله إلا الله، وأشهدنا أنفسنا بك من نفسك فيك، عبادا لك، وكتبا منك، وكلمات إليك، ورسلا لخلقك فيك.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وارحمنا وتولَنا، واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك، اللهم أصلح أمرنا، حكاما ومحكومين، غافلين ويقظين، عاملين ومتواكلين، اللهم خذ بيدنا أجمعين، واجمع عليك قلبا قلوبنا، ووحد فيك كلمتنا، وأعلِ بنا كلمتك، وارحمنا برحمتك، واجعلنا من المسلمين، بجاه سيد الأولين

والآخرين، عبدك وابن عبدك ورسولك وخادم أمتك وجماع خلقك من أظهرته محمدا بن عبد الله. اللهم اجعله لنا وسيلتنا إليك، واجعل قيامه فينا غايتنا، وارحمنا به يا أرحم الراحمين، وصلنا به موصولين بك في وصلتنا به أول العابدين، لا إله إلا أنت ولا معبود سواك.

أضواء على الطريق

- اللــه وملائكتــه يصلون
- النبي وعترتـــه يصلون
- المؤمنـــون يصلون

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة يس - ٦٧
٢ سورة الأعراف - ١٧٢
٣ سورة الحديد - ٢٨
٤ مقولة صوفية
٥ سورة الشورى - ١١